المقدمة

حظي تراثنا النقدي باهتمام نقادنا المعاصرين، كما هو حال الأمم الأخرى الحاضرة في عنايتها بتراثها القديم، ذلك أن قراءة التراث - في بعض وجوهها - استلهام لروح العقل الجمعي التاريخي في توقه إلى الارتقاء في سلم الحضارة، ومن جهة أخرى فإنها شكل من أشكال المحاكمة العقلية لمعطيات الماضي بما هي عليه من أفكار وقيم ومعتقدات، وذلك ليس من الأمور اليسيرة، إذ لا يتاح إلا لثلة من الباحثين الذين يتمتعون بسمة (الحياد) و(الموضوعية)، التي تقتضي تجريد الذات القارئة من شروطها التاريخية، والانسلاخ المنهجي عن هويتها الثقافية، ليتسنى لها النظر إلى المعطيات والأفكار بذاتها، وليس من حيث ارتباطها باعتبارات تاريخية أو أيديولوجية معينة، فهذه كلها عوامل تحدد رؤية الباحث إلى التراث وتؤسس موقفه الفكري والنفسي إزاءه.

إن المتعمق في أغلب القراءات المعاصرة لتراثنا النقدي، يجد أنها تنطلق من رؤية نظرية وآليات منهجية واحدة تمسّ حقيقة التراث، ومدى أصالته وقيمته العلمية فهي تجمع على ضآلة المنجز العقلي التراثي على صعيد الإبداع والابتكار والتأسيس النظري، والتوكؤ على معطيات العقل اليوناني ولاسيما أرسطو في الجوانب الفكرية والفلسفية ذات القيمة الفكرية والعلمية. وهذا الإجماع حول تلك المقولات يوحي بأنّ تلك القراءات، تقوم على منهجية (اقتفاء الأثر) أو (إعادة إنتاج المقروء) على اختلاف الطرائق والمسميات، ولذلك أسبابه الموضوعية والذاتية.

وقد تجلت تلك المنهجية في أغلب تلك القراءات، وفي مقدمتها (النقد المنهجي عند العرب - د. ت) لمحمد مندور، و(النقد الأدبي الحديث 1987) لمحمد غنيمي هلال، و(نظريات الشعر عند العرب 1981) لمصطفى الجوزو، و(النقد

الأدبـــي الحديث، أصوله واتجاهاته – د. ت) لأحمد كمال زكي، و(مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي 1972) لجابر عصفور، و(تشريح النص – 1987) لعبد الله الغذامي.

ولم تعدم القراءات العربية المعاصرة، اتجاهاً تعامـــل مـــع التـــراث بمنهجيـــة موضوعية وإن طغى عليها السرد التاريخي الوصفي، ومن أهمهـــا (تـــاريخ النقـــد الأدبـــي عند العرب، من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري – 1974) لطـــه احمد إبراهيم و(تاريخ النقد الأدبـــي عند العرب – 1978) لإحسان عباس، و(في نظرية الأدب عند العرب – 2002) لحمادي صمود، و(تاريخ النقـــد الأدبـــــي، نصوص النظرية النقدية) لداود سلوم، و(النظرية النقدية عند العرب – 1981) لهند حسين طه.

وثمة قراءات نقدية تتمتع بأهمية لا يمكن إغفالها، حاولت أن تعيد قراءة التراث النقدي في ضوء منهجية تحليلية معمقة اتخذت منحى (نقد النقد)، الذي حمـــل في طياته مشروعا نقديا منهجيا لإعادة قراءة تراثنا النقدي والشعري قراءة معاصـــرة، في مقدمتها محاولات مصطفى ناصف في مؤلفاته: (نظرية المعنى) و(قـــراءة ثانيـــة للشعر القديم) و(دراسة الأدب العربـــي). وكذلك مشروع عبد العزيـــز حمـــودة النقدي الذي يسعى إلى إرساء أساس نظري رصين يمكن الانطلاق منه لتأســـيس نظرية أدب عربية معاصرة، ويلاحظ ذلك في كتابيه المهمين: (المرايـــا المحدبـــة – 2000) الذي خصص لنقد فكر الحداثة الغربية النقدي، و(المرايا المقعـــرة – 2001) الذي يطرح فيه مشروعه النقدي العربـــي.

ولابد من الإشارة إلى بعض الآراء والملاحظات الجادة المتأملة لتراثنـــا النقـــدي والشعري، التي وردت في ثنايا مؤلفات تناولت قضايا نقدية عامة، منها ملاحظـــات عبد الملك مرتاض في كتابه (بنية الخطاب الشعري – 1986) وملاحظات شـــكري عزيز الماضي في كتابه (في نظرية الأدب – 1993)، والقراءات الأخيرة تتسم بالجدية والموضوعية، وتسعى إلى الكشف عن أهمية التراث وإبراز قيمته العلمية بمعزل عـــن الآراء والمواقف السابقة، التي أدت إلى ما أدت إليه من نتائج وأحكام سلبية.

إن تلك القراءات على اختلاف مناهجها وغاياتها، لا تخلو من أهمية لأنها تقدم وجهات نظر تتباين في بعض الوجوه وتتفق في وجوه أخرى، وتقترب من حقيقـــة

التراث حيناً وتبتعد عنها حيناً آخر، ومن ثم فهي تمثل صوراً متعددة لحقيقة واحدة يستطيع الباحث الركون إلى بعضها أو العزوف عن بعض، لكنها في مجملها منصبة على النظرية النقدية العربية بصورة عامة، أما من الناحية المنهجية فإنها يغلب عليها المنهج التاريخي/الزمني، الذي يتناول الظاهرة المقروءة من حيث ارتباطها بالمرجعيات التاريخية أو الآيديولوجية أحياناً، كما في القسم الأول من القراءات السابقة، الأمر الذي رجّح كفة العامل التاريخي على الجانب النقدي/التقني، وربما أدى إلى الإهتمام بالإنتماء الآيديولوجي للناقد على حساب نصوصه النقدية، فأفضى ذلك إلى إساءة قراءة النص، ومن ثم توجيه معطياته النقدية توجيهاً مخالفاً لمنطوق النصوص المقروءة.

أما هذا البحث فقد تمركز حول جانب من جوانب النظرية النقدية العربية، وهو مفهوم الشعرية بوصفها الأثر الجمالي لتفاعل عناصر الخطاب اللغوي، في أرقى مستوياته الأسلوبية وتقنياته التعبيرية، التي تؤلف - في مجموعها - الوظيفة الجمالية للخطاب الشعري، وهو جانب لم يسلط عليه من الضوء ما يكفي للكشف عن اتجاهاته ومضامينه الفكرية والجمالية، فظلّ موضوعاً غائماً في ثنايا النظرية النقدية العامة. وقد ورد مفهوم الشعرية - باديء ذي بدء - في ثنايا شروح الفلاسفة المسلمين لكتاب أرسطو فن الشعر ثم تناوله حازم القرطاجني ليتضمن الوظيفة الجمالية للخطاب. فالشعرية عند الفارابي نتاج لترتيب الألفاظ وتحسينها ((فيبتديء حين ذلك أن تحدث الخطبية أولاً ثم الشعرية قليلاً قليلاً)) (كتاب الحروف - تح محسن مهدي - ص 141)، ويرد هذا المفهوم عند ابن سينا في معرض كلامه على الأسباب المولدة للشعر وهي: (الإلتذاذ بالمحاكاة) و(حب الناس للتأليف المتفق والألحان)، ثم يقول ((فمن هاتين العلتين تولدت الشعرية)) (فن الشعر من كتاب الشفاء - لابن سينا، ضمن كتاب (فن الشعر) لأرسطو - تح بدوي - ص - 172)، وترد الشعرية عند ابن رشد في ما ينقله عن أرسطو في قوله ((وكثيراً ما يوجد في الأقاويل التي تسمى أشعاراً، ما ليس فيها من معنى الشعرية إلا الوزن كأقاويل سقراط، وأقاويل انباذوقليس في الطبيعيات، بخلاف الأمر في إشعار أوميروش)) (تلخيص كتاب (فن الشعر) لأرسطو - تح بدوي - ص 204)، وترد عنده كذلك في معرض بيانه علاقة الشعرية بالتخييل والأقوال المغيرة كالتشبيه

والاستعارة والكناية وإنطاق الجماد (التشخيص) فيقول: ((وأنت إذا تأملت الأشعار المحركة وجدها بهذه الحال وما عدا (من) هذه التغييرات فليس فيه من معنى الشعرية إلا الوزن فقط)) (المصدر نفسه – ص 243). أما حازم القرطاجني فيتناول الشعرية بمفهومها الوظيفي وليس الاصطلاحي، فيقول ((وكذلك ظن هذا أن الشعرية في الشعر إنما هي نظم أي لفظ كيف اتفق نظمه، وتضمينه أي غرض اتفق على أي صفة، لا يُعتبر عنده في ذلك قانون ولا رسم موضوع)) (منهاج البلغاء – تح ابن الخوجة – ص 28)، وهذا يعني أن الكلام الذي يتوخى نظم الألفاظ لمجرد النظم يكون شعراً، لكنه خال من الأثر الجمالي، ويتجلى هذا المفهوم للشعرية في قوله الآخر، الذي يميز فيه بين الأقاويل على أساس الوظيفة الجمالية، التي تهيمن على الخطاب دون الوظائف الأخرى: ((لأن الأقاويل التي ليست بشعرية ولا خطابية يُنحى بها نحو الشعرية لا يحتاج فيها إلى ما يحتاج إليه في الأقاويل الشعرية، إذ المقصود بما سواها من الأقاويل إثبات شيء أو إبطاله أو التعريف بماهيته وحقيقته)) (المصدر نفسه – ص 119). وهذا المعنى يحيل على نحو غير مباشر إلى ما يسميه ابن سينا (التصديق)، أما الشعرية فهي مرتبطة بوظيفة (التخييل) المتعلقة بإثارة الشعور بالعجب، الناجم عن حسن التشبيه فيما يتعلق بالمحاكاة، ذلك أن (التخييل) يفعله القول لما هو عليه، في حين أن (التصديق) يلتفت فيه إلى جانب حال المقول فيه، بتعبير ابن سينا. كما سيتضح ذلك في موضعه من هذا البحث.

أما من الناحية المنهجية فقد اعتمد البحث المنهج التزامني، الذي يقوم على قراءة نصوص التراث في سياقها الثقافي والفكري، مستبعداً السياق التاريخي العام الذي يحيط بها، بغية اكتشاف اتجاهاتها وقوانينها الذاتية المؤثرة في حركة تطورها وازدهارها، وهذا من شأنه تخليص التراث – في جانبه المقروء – مما شابه من الأحكام والمواقف، التي تمخضت عنها الدراسات السابقة. على أن هذه القراءة لا تعني القطيعة التامة مع معطيات القراءات المذكورة، وإنما هي تحتضن بعض الآراء ووجهات النظر، التي تراها مطابقة للحقائق ومنسجمة مع العقل والمنطق، وهذا ما يتوخاه هذا البحث.

وفي ضوء تلك المعطيات قسم البحث على ثلاثة فصول، تناول الفصل الأول منها (المرجعيات المعرفية للشعرية العربية)، التي توزعت على ثلاثة مباحث تمركز

الأول منها حول (الشعرية في المفهوم الأرسطي)، أما المبحث الثـــاني فقـــد تنـــاول (الشعرية في المنظور الفلسفي)، الذي ضم آراء ثلاثة من كبار فلاسفة الإسلام هـــم: الفارابـــي، وابن سينا، وابن رشد، الذين شرحوا كتاب أرسطو (فن الشعر) وعلّقوا عليه، وبينوا القوانين الشعرية الخاصة بالشعر اليوناني، والقوانين الكلية لأشعار الأمـــم الأخرى، وما ينفرد به الشعر العربـــي من خصائص لغوية وأسلوبية وبلاغية، وذلك لبيان مدى الأصالة والتأثر في نظرية الشعر عند هؤلاء الفلاســـفة، الـــذين مهّـــدوا السبيل – على صعيد التنظير النقدي – لأهم ناقد عربـــي هو حـــازم القرطـــاجني، الذي تبلورت على يديه نظرية الشعر العربية بأسسها الفكرية والجمالية.

أما المبحث الثالث فقد عني بـــ (الشعرية في المنظور النقدي)، وهـــو يرصـــد حركة التفكير النقدي العربـــي، منذ نشأته في عصر ما قبل الإسلام، وتطـــوره في القرنين التاليين للهجرة. وتمثل هذه الحقبة مرحلة النقد الثقـــافي، الـــذي مارســـه اللغويون والرواة والشعراء، قبل ظهور المصنفات المنهجية، الـــتي تناولـــت قضـــية (الشعرية)، على نحو موسوعي غير متخصص كما عند الجاحظ.

وقد تناول الفصل الثاني (مستويات البنية الشعرية)، التي تمثل آراء النقـــاد في مصنفاهم النقدية، التي ظهرت بواكيرها في مبتدأ القرن الثالث الهجـــري أو بعـــده بقليل، وذلك لتحديد بنية الشعر وعناصرها التكوينية، الـــتي تتموضـــع في ثلاثـــة اتجاهات رئيسية هي:

1. الإتجاه الثنائي.
2. الإتجاه الأحادي بمذهبيه الشكلي/اللغوي، والدلالي.
3. إتجاه البنية المركبة/وحدة البنية الشعرية، الذي يتبناه عبد القـــاهر الجرجـــاني، ويتجلى فيما عرف بـــ (نظرية النظم) التي أفضت إلى إدماج الدال والمدلول في وحدة بنائية لا تقبل الانفصام، ذلك أن الشكل اللغوي هو الـــذي يحـــدد المعنى بالنسبة للقاريء، في حين يحدد المعنى شكله اللغوي بالنسبة للمبدع.

وللشعرية تجليات أسلوبية ذات وظيفة جمالية تناولها الفصل الثالث في أربعـــة مباحث، عني أولها بالبناء اللغوي أو ما يسميه النقاد العرب وحـــدة (النســـيج) أو (السبك) أو (التأليف) أو (النظم)، وهو نمط بنائي يميز الشعر عن غيره من فنـــون القول، وبذلك يصبح معياراً لتحديد مستويات الشعرية.

كما تتجلى الشعرية في عنصر (التصوير) أو (الصورة) الشعرية، التي تناولها المبحث الثاني وكشف عن وجود نمطين للصورة الشعرية هما:

1. الصورة المقاربة: وهي الصورة المطابقة للواقع الموضوعي للأشياء.
2. الصورة المفارقة: التي تقوم على الاختلاف ومفارقة صور الأشياء الواقعية أو صور الأشياء كما هي. وهي صورة ذاتية يساهم فيها الخيال مساهمة كبيرة.

وقد مُهّد لهذين النمطين من الصور الشعرية، بإيضاح مفهومي (الوصف) و(التصوير) في ضوء إشكالية (الصدق) والكذب، أو (الاعتدال) و(المبالغة) باعتبارهما مفهومين يحملان دلالة فنية في المقام الأول.

أما المبحث الرابع من هذا الفصل، فقد كرّس لدراسة تجلّ آخر من تجليات الشعرية، وهو (الغموض) الذي يمثل مستوى راقياً من مستويات الشعرية، لدى الكثير من النقاد العرب القدامى، الذين مازوه من (التعقيد) بنوعيه (اللفظي) و(المعنوي)، على أنه شكل من أشكال اختلال البنية النحوية للعبارة، لأنه يفضي إلى اللبس واضطراب المعنى، جراء انعدام الترابط المنطقي في العلاقات اللغوية، نتيجة لعدم مراعاة قواعد النحو، وهذا ما يجعله نقيضاً لـ (الغموض) الذي يقوم على ظاهرة (التعدد الدلالي)، التي تستند إلى العلاقات المنطقية بين دلالات الألفاظ، الأمر الذي يتيح إمكانية الإنتقال من البنية السطحية، إلى البنية العميقة انتقالاً منطقياً معقولاً، دون انتهاك لقواعد اللغة أو بنيتها النحوية.

وقد تضمنت خاتمة البحث خلاصة لأهم النتائج والمعطيات، التي تمخض البحث عنها، عبر قراءة النصوص النقدية لأبرز أعلام النقد في تراثنا العربي، تكريساً لاعتقادنا باستقلالية نظرية الشعرية العربية، المؤسّسة على خصوصية العقل العربي وغيريّته الثقافية.

إن هذا البحث هو محاولة لإعادة قراءة تراثنا النقدي/نظرية الشعرية وسط خضمّ من القراءات المتباينة المناهج والأهداف، بغية اكتشاف حقيقة هذا التراث، ومستوى التفكير العربي النقدي الذي أبدع أدواته المعرفية، وأسّس تراثاً له خصوصيته وملامحه الثقافية، انطلاقاً من وعي الذات ثم انفتاحها على ثقافات الأمم الأخرى.

والحمد لله رب العالمين.

تموز/2006